أساس الشعور بالمسئولية

أخشى أن تصبح كلمة «المسئولية» فى عرفنا كلمة مستكرهة ، لكثرة ما استخدمت أخيراً فى أوضاع معينة ، توحى ببعض المعانى الرهيبة أو المهيبة .

فأكثر ما تستعمل هـذه الكلمة اليوم فى وضع يشعر المسئول فيه بشىء من القلق والخوف ، إما توقعا لجزاء مادى ، كموقف المتهم أمام القاضى ، وإما توقعاً لحرمان أدبى ، كموقف الممتحن أمام لجنة الامتحان .

لكن الواقع أن فكرة المسئولية ، فى أساسها ومنبتها ، ليست لها هذه الدلالات المزعجة وإن كانت فى بعض أطوارها وملابساتها تحوم حولها هذه المعانى .

تفصيل ذلك أن المسئولية صفة تلازم صاحبها فى فترة ممتدة ذات طرفين : بداية ونهاية ؛ وأن لها فى كل طرف منهما معنى خاصاً ، ودلالة معينة . فالمسئولية تبدأ حين يطالبك الواجب ، ويناديك منادى العمل ؛ وتنتهى بعد أن تقدم حسابك عما صنعته فى جواب ذلك الدعاء . وبين هذين الطرفين برزخ يطول أو يقصر على حسب المدة المقدرة لإنجاز عملك .

ها هنا إذاً ثلاث مراحل : مرحلة نداء الواجب إيانا ، ومرحلة إجابتنا لهـذا النداء ، ومرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة .

ولنكتف الآن بالمرحلة الأولى من هذه المراحل ، وهى مرحلة مطالبة الواجب لنا بالعمل . وسنرى أن فكرة المسئولية فى هـذه المرحلة توحى إلينا معنى القوة لا الضعف ، وأنها تبعث فينا شعور السيادة واليد العليا ، لا شعور الرهبة أو الهوان .

جاوز بطرفك عالم الإنسان ، ثم ارجع البصر كرتين مصعداً منحدراً ، فيما شئت من العوالم التى تشاهدها فى السماء والارض ، وانظر هل ترى من بينها مسئولا واحداً عن حاله فضلا عن حال غيره ؟ هل تسأل الجبال الراسيات عن استقرارها وثباتها ، أو الرياح المتحركة عن حركاتها وتقلباتها ، أو البدر عن استدارته واستنارته ، أو الشمس عن ضوئها وحرارتها أو البحر لماذا هو ملح أجاج ، أو النهر لماذا هو عذب فرات ، أو الطير لماذا لا تعيش فى الماء ، أو الأسماك لماذا لا تسبح فى الهواء ؟؟ .

Scanned with CamScanner

إن هذه العوالم كلها ليست مسئولة عن شيء ، لأنها لا تملك شيئاً ؛ فلقد حددت لها الفطرة طريقاً معينا هى مسيرة فيه ، ميسرة له ، لا خيرة لها فى السير على خطها المرسوم ، ولا حيلة لها فى الخروج عن مدارها المعلوم . ألا يكون من العبث والحالة هذه أن يطلب إليها سلوك سبيل هى سالكتها حتما بغير اختيارها ، أو ترك مجال هى تاركته حتما بغير إرادتها ثم ألا يكون من أسفه السفه أن يطلب إليها التحول عما هى ملجأة إليه فى كلا الحالين ؟

إن كل إلزام أدبي يفترض فيمن يوجه إليه الخطاب أن يكون ذا شخصية مستقلة ، تعمل لحسابها الخاص ، لا لحساب الطبيعة القاهرة . وذلك يقتضى أول كل شيء أن ينطوى المسئول على إمكانيات متعددة ، وأن يكون أمامه مسالك متنوعة ؟ ويقتضى بعد ذلك أن يكون له من قوى التفكير والتروّى ، والمقايسة والموازنة ، ما يمكنه من الترجيح بين الطرائق الممكنة المعروضة عليه ؛ ثم أن تكون له الحرية بعد ذلك ، فى التصميم على قبول ما يشاء ورفض ما يشاء من هذه الحلول ؛ وأخيراً أن تكون له القدرة على تنفيذ ما قدره فى عزمه ، وأجمع عليه أمره . فكل شيء كان نصيبه الطبيعى الحرمان من هذه المؤهلات كلا أو بعضاً ، وكل شيء ثبتت براءته من الحول والطول ، كان حريا بأن يأبى حمل أمانة التكاليف ، وأن ينفض يده من كل مسئولية . وهذا كله لو تأملته ينطوى فى معنى الآية الحكيمة : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » .

من ذا الذى يستأهل إذاً أن يتصدى لحمل هذه الأمانات ، ويدعى لنفسه القدرة على التزام النهوض بها ، وعلى الوفاء بالتزاماته ، من بين سائر العوالم التى يقع عليها حسُّنا ؟

لا شك أنه هو الكائن المجهز بجهاز يستطيع أن يصرفه باختياره ذات اليمين وذات الشمال ، فى استقامة واعتدال ، أو فى انحراف واعوجاج . لا شك أنه هو الكائن المزود بمؤهلات الخطاب ، وقوى الفهم والبيان ، والحرية والإمكان . ذلكم هو الإنسان ، بما هو ذو عقل وإرادة واقتدار ... فهو إذاً الذى رشحته فطرته لهذه الأعباء ، فأصبح ذا مسئولية ، وموضع أمانة ، وصاحب نفوذ وسلطان ، ومصدر إنشاء وابتكار . وهذا هو معنى ختام آية الأمانة : « وحملها الإنسان » .

* * *

Scanned with CamScanner

الشعور بالمسئولية إذاً شعور نبيل ؛ لأنه شعور بالاستقلال والتحرر من أسر الطبيعة ، شعور بالقدرة على تغيير معالم الأشياء ، وعلى معالجتها بالعزيمة والإرادة المبتكرة ، شعور بالكرامة التى كرم الله بها بنى آدم ، وبالفضل الذى فضلهم به على كثير من خلقه .

والمسئولية إذاً صفة يستمدها كل امرىء من فطرته الإنسانية قبل أن يتلقاها من واضعى الشرائع والقوانين ، وهى كما قلنا صفة لازمة للإنسان بما هو ذو عقل وإرادة واقتدار ؛ وليست صفة له بما هو مقهور مجبور ، مسير مسخر . ومن عجيب أمر الإنسان أنه يجمع هذين الوصفين المتناقضين فى علاقته بالكون : إنه سيد مسود ، وحاكم محكوم ، ولكن فى ميدانين مختلفين فهو فى عالم المادة وعالم الحياة ، وعالم النفس ، لا يخرج عن أن يكون جزءا من هذه العمارة الكونية ، خاضعاً لنواميسها وقوانينها : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » ، ألا تراه حين يثب فى الهواء لا يلبث أن يعود إلى الأرض قسراً عنه ؟ لأنه من حيث هو جسم مادى يخضع لقوانين المادة ، التى من أوائلها قانون الثقل والجاذبية .

أولا تراه فى تنفسه وهضمه ونبضات قلبه ، وفى نموه واكتهاله ، وشيخوخته وهرمه كائناً حياً ككل كائن حى تسرى عليه قوانين الحياة ؟ ثم ألا تراه حين يأخذه النوم : كيف تساوره الأحلام ؟ وحين تتقلب عليه المؤثرات : كيف يسر ويحزن ويخاف ويأمن ، ويرضى ويغضب ؟ لأنه ذو نفس تسرى عليها أحوال النفوس وأعراضها الجبلية .

الإنسان فى هذه الميادين كلها أسير طبيعته ، وسجين فطرته . . . لا جرم وضعت عنه فيها كل الأحمال والأعباء ، لأنه يستوى هو وسائر الأشياء .

لكن له من فوق هذه الميادين ميدانا أعلى ، يملك فيه حريته ، ويبرز فيه سلطانه ، تتقرر فيه مسئوليته ، ذلك حيث تسلس له الطبيعة قيادها وتملكه زمامها ، وتمهد له سبلها المختلفة ينتقى منها وينتخب : تحليلا أو تركيباً ، تعميرا أو تدميرا ، وذلك حيث تأذن له قواه البدنية والنفسية وعلائقه الخاصة والعامة ، أن يتصرف فيها قبضاً أو بسطا ، رفعا أو خفضاً قطعاً أو وصلا يؤاسى ويأسو ، أو يجرح ويقسو ؛ يألف ويؤلف ، أو يتجبر ويتكبر ، يضيع أمانته أو يصونها ؛ يحمى أوطانه أو يخونها ! يرفع رأسه إلى السماء طلباً للمثل العليا ، أو ينكس بصره إلى الأرض سعيا وراء زخرف الدنيا .

Scanned with CamScanner

الإنسان فى هذا كله وفى سائر تصرفاته الاختيارية سيد مسئول ، ومسئوليته مشتقة من سيادته ، إنه سيد بتسويد الله له منذ جعله خليفته فى الأرض ، فمكنه منها واستعمره فيها ، وإنه مسئول بموجب هذه السيادة أن يؤدى حقها .

كم من مرة سمعنا الكلمة المأثورة : « إن من نعم الله عليكم حاجة الناس إليكم » ، غير أننا عند سماع هذه الكلمة كنا نفهمها على صورة ضيقة ، وفى نطاق محدود ، إذ كان يبدو لنا أن صاحب المال ، أو صاحب الجاه هو الذى ينبغى أن يعد نفسه فى نعمة ، لقدرته على قضاء حاجة المحتاجين . أما الآن فإننا نفهمها فى أوسع معانيها ؛ ونستطيع أن نناشد بها الناس جميعاً قائلين : « إن من نعم الله عليكم ، حاجة المجتمع ، بل حاجة الكون إليكم » ذلك أن مطالب الحياة والصحة ، والعلم والقوة ، والأمن والرخاء ، والعدل والبر ، والرحمة والإحسان ، وسائر القيم الكبرى ، والمثل العليا ، لا غنى لها طرفة عين عن تضافر القوى البشرية ، وتماسك أيديها وسواعدها ، وتعاون عقولها وقلوبها . فنحن جميعاً شركاء فى المسئولية ، لا فضل لكبير على صغير ، ولا لقوى على ضعيف : كل على قدر وسعه ، وفى حدود متناوله ، مطالب بنصيب قل أو كثر ، فى عمارة هذا الكون بالصلاح والإصلاح . وإن كل سهم تبخل به عزيمة من العزائم ، تنقص به لبنة أو لبنات فى بناء المجتمع الصالح ، الذى يطالب منا إقامته بمقتضى خلافتنا فى الأرض ، والذى لولا يد الإنسان ما ارتفع له بنيان ، بل لولاها ما تغير وجه التاريخ فى هذا العالم . فقديماً قال بعض الحكماء : « أرونى ما ذا أضافت العجماوات إلى ما وهبته لها الطبيعة ، منذ نشأة العالم إلى اليوم !.. بينما نرى الإنسان قد غير وجه الأرض ونقب فى أحشائها ... واليوم وقد أمضى العقل الإنسانى ألوف السنين فى بحث وتنقيب ، لا يزال معينه جارياً لم ينضب ، ولا يزال يبتكر الجديد المفيد . إنه لا شىء يقف أمام العقل الإنسانى ، ولا شىء يضع حدا لكشفه وابتكاره ، إلا شىء واحد ، هو كسله وتراخيه »[1] .

هكذا كل شىء فى الكون يناديا منذ نشأتنا بأننا مسئولون ، لا بمعنى أننا متهمون محاسبون ، بل بمعنى أننا مقصودون مأمولون . وإن من أكبر دواعى الفخار للإنسانية أن تكون هى محط هذا السؤال العالمى ، ومناط ذلك الأمل الكونى .

وهكذا يتبين لنا أن المسئولية فى أساسها ليست خطاب تعنيف وتخويف ، وإنما هى

---

(١) الفيلسوف بوسويه فى الفصل الثامن من كتاب « معرفة الله » .

Scanned with CamScanner

لقب تشريف ، وخطاب تكليف ، وهى تشريف من حيث هى تكليف ؛ إذ لا يكلف بحمل الأعباء إلا من هو أهل لحملها .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

نعم إننا بفطرتنا مسئولون ، لا سؤال اتهام ومناقشة حساب ، بل سؤال التماس ودعاء ورجاء . وليس الإنسان المسئول هو الذى يلتمس ويرجو ، بل هو المدعو المرجو ... فالمصالح المادية والأدبية تلتمس منه أن يقوم بأدائها ، والقيم الأخلاقية والاجتماعية والروحية تدعوه أن يتدخل بإرادته وعزيمته لتحقيقها ؛ ثم تناشده مؤهلاته ومرشحاته نفسها أن يسرع إلى تلبية هذا النداء السرى العميق ، الذى تبسطه الكائنات بلسان حالها ، قبل أن تبسطه الأنبياء والرسل بلسان مقالها : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

دكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

Scanned with CamScanner